التّوكّل على الله تبارك وتعالى

(خطبة الجمعة للشّيخ عبد الحق شطّاب بمسجد الشّيخ أحمد حفيظ رحمه الله

يوم 21 رجب 1434هـ الموافق لـ 31 ماي 2013م)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا، من يهدِه الله فهو المُهتد ومن يُضلل فلن تجِد له وليًّا مرشدًا،

أشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له وأشهد أنّ مُحمّدا عبدُه ورسوله،

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿01﴾ " سورة النّساء.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾ " سورة آل عمران.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾ " سورة الأحزاب.

ألا وإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله وسلّم –،

وشرّ الأمور مُحدثاتها وكلّ محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة أعاذنا الله من الزّيغ والضّلال،

معاشر الإخوة الكرام، في هذه الجمعة المباركة، نتناول موضوع :

التّوكّل على الله تبارك وتعالى

معاشر المسلمين،

لو يبحث المسلم عن سبب تساهل النّاس في التّعامل بالرّشوة والرّبا والحِيَلِ والغشّ في السّلعة، لَعَلِمْتَ أنّ هؤلاء ليس لهم حظٌّ في منزلة التّوكّل على الله تعالى، لأنّهم لو توكّلوا على الله حقّ التّوكّل، لما احتاجوا إلى الإستعانة بما هو محظورٌ لتحصيل ما هو حلالٌ، وهناك من يعتمد على الأسباب في النّجاح.

فهؤلاء ليس لهم يقين:

" إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿58﴾ " سورة الذّريات.

وكأنّهم لم يُسَلِّمُوا بقوله تعالى:

" وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿6﴾ " سورة هود.

واليقين هو رؤية العيان بقوّة الإيمان، لا بالحُجَّةِ والبيان، وهو مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وهو اعتمادك على مولاك ورجوعك إليه دون سواه.

فإن تعثّر بشيءٍ فبتقديره، وإن تيسّر شيءٌ فبتيسيره، قال تعالى:

" وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿22﴾ " سورة الأحزاب.

وقال سبحانه:

" الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿173﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿174﴾ " سورة آل عمران.

والله جلّ جلاله يأمرنا بالتّوكل عليه، لأنّه الحيّ الّذي لا يموت، فكيف يعتمد الواحد على العاجز الميّت، ويترك الصّمد الحيّ:

" وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ . . . ﴿58﴾ " سورة الفرقان.

فمن توكّل في قضاء حوائجه على غير الله فقد ضاع.

فالإعتماد على الخلق طريق الخذلان، ومن فعل ذلك فقد ضيّع وقته وخاب سَعْيُهُ.

لأنّ الحيّ الّذي لا يموت دعاك بِلُطْفٍ فقال لك:

" وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ . . . ﴿58﴾ " سورة الفرقان.

وقال لِنَبِيِّهِ:

" . . . فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿159﴾ " سورة آل عمران.

" فَإِذَا عَزَمْتَ " على إمضاء ما تريد بعد المشاورة " فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " أي ثق بالله لا بالمشاورة.

ثبت في صحيح مسلم عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: (**اللّهمّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكّلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللّهمّ أعوذ بعزّتك لا إله إلاّ أنت أن تضلّني، أنت الحيّ الّذي لا يموت، والجنّ والإنس يموتون**) متّفقٌ عليه.

قال ابن عبد البرّ رحمه الله: { (**أسلمت**) استسلمت لحكمك، وسلمت ورضيت وصدّقت وأيقنت، (**وبك آمنت**) صدّقت، (**وعليك توكّلت**) أي ركنت إليك في سائر الأمور، وخرجت عن تدبيري لنفسي وحَوْلِي وقُوَّتِي.

(**أنت الحيّ الّذي لا يموت والجنّ والإنس يموتون**) فيه تنبيهٌ عن سبب التّوكّل على الله ورد الأمر إليه دون غيره وهو أنّ غيره يموت، والتّوكّل إنّما يكون على الحيّ الّذي لا يموت }.

فمن اعتزّ بغير الله ذلّ، ومن اهتدى بغيره ضلّ، ومن اعتصم بسواه هُزِم.

روى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (**يدخل الجنّة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطّير**)، ومعناه متوكّلون على الله جلّ جلاله.

إخوتي الكرام،

اعلموا أنّ التّوكّل لا ينافي الأخذ بالأسباب كاملةً، فالمؤمن في بادئ الأمر يتّخذ الأسباب، وكأنّ الأسباب كلّ شيءٍ، حتّى لا يفرّط، ولأنّه مأمور بذلك:

" **يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿ 6 ﴾** " **سورة الإنشقاق.**

ولقد أمر الله مريم أمّ عيسى عليه السّلام بأن تهزّ جذع النّخلة، رغم أنّ النّخلة لِهَزِّهَا تحتاج إلى عشرة رجالٍ والله أعلم إن اهتزّت:

" **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿ 25 ﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا . . . ﴿ 26 ﴾** " **سورة مريم.**

ولكن بعد الإتيان بالأسباب لا نتعلّق بها، بل نتعلّق بربّ الأسباب في تحقيق المراد، لأنّه ربّ الأسباب والنّتائج.

ثبت في الصّحيحيْن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: { **كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذات الرّقاع، فإذا أَتَيْنَا على شجرةٍ ظليلةٍ تركناها لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فجاء رجلٌ من المشركين وسيف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معلّقٌ بالشّجرة فَاخْتَرَطَهُ، فقال: (تخافني؟)، قال: (لا!)، فقال: (فمن يمنعك منّي؟)، قال: (الله!)، فسقط السّيْف من يده، فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم السّيف فقال: (ما يمنعك منّي؟)، فقال: (كن خير آخِذٍ)، فقال: (تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله)، قال: (لا!، ولكنّي أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قومٍ يقاتلونك)، فخلّى سبيله، فأتى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير النّاس) }.**

وهذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعطينا صُوَرًا من توكّله، ثبت في الصّحيحين عن أبي بكرٍ الصّديق رضي الله عنه، قال: { **نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا، فقلت: (يا رسول الله!، لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميْه لأَبْصَرَنَا)، فقال: (ما ظنّك بإثنيْن الله ثالثهما؟!)** }.

هذا هو حقيقة التّوكّل على الله، اليقين في الله، وهو اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويش الأسباب ولا سكون إليها.

لأنّ اعتماده على الله واستناده إليه حِصْنُهُ من خوفها ورجائها، فهو لا ينتظر شيئًا من الأسباب، وحاله كمن خرج عليه حيوانٌ عظيمٌ لا طاقة له به، فرأى حِصنًا فأدخله الله فيه وأغلق عليه.

والأنبياء والصّالحون بلغوا هذه المنزلة، فكانوا كالجبال في كل الأحوال، قال تعالى عن موسى عليه السّلام:

" فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿60﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿61﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿62﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿63﴾ " سورة الشّعراء.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرّحيم.

الخطبة الثّانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أحمده على نعمه، وأشكره على فضله وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله،

حقيقة الإيمان الصّادق العميق، أنّ الواحد منّا لا يتوكّل إلاّ على الله تبارك وتعالى، سواءًا في قضاء حاجةٍ، أو تفريج كربةٍ، أو شفاءٍ من مرضٍ، أو تحصيل نتيجةٍ، فإن كنّا كذلك، كنّا أقرب إلى الإيمان السّليم الصّحيح، الّذي ينفع صاحبه في دنياه وآخرته.

اللّهمّ أهدِنا فيمن هديْت وعافِنا فيمن عافيْت وقِنا شرّ ما قضيْت،
اللّهمّ لا تَدَعْ لنا في مَقامِنا هذا ذنبًا إلاّ غفرته، ولا دَيْـــنـــًا إلاّ قضيْته، ولا مريضًا إلاّ شفيْته، ولا حاجةً من حوائج الدّنيا أو الآخرة لك فيها رضًا ولنا فيها صلاحاً إلاّ قَضيْتها لنا ويَسَّرتَها لنا، يا أرحم الرّاحمين،
اللّهم إنّا نسألك فِعل الخَيْرات، وتَرْك المنكرات، وحُبّ المساكين، وإذا أردت بْقَوْمٍ فِتنةً فتَوَفّنا غير فاتنين ولامفتونين،
اللّهم إنّا نسألك حُبَّك وحبّ من أحبّك وحبّ كلّ عمل يُقرّبنا إلى حبّك،
اللّهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيّامنا يوم لقاك،
اللّهم لا تأخذنا على حين غِرّة، ولا على حين غفلة،
اللّهم إنّك عفوٌّ تحبّ العفو فاعف عنّا، اللّهم إنّك عفوّ تحبّ العفو فاعف عنّا،
اللّهم انصر الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها واخذُل ودمِّر أعداء الدّين في مشارق الأرض ومغاربها،
اللّهم انصر المظلومين في سورية وفي سائر بلاد المسلمين،
اللّهم انصر المظلومين في سورية وفي سائر بلاد المسلمين،
إنّك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين،
سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت نستغفرك ونتوب إليك.